الأصوليات المعاصرة

روجيه غـــارودي

الأصوليّات المعاصرة

أسبابها ومظاهرها

تعريـــب

الدكتور خليل أحمد خليل

دار عام ألفين

بـاريـس

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
ولدار عام ألفين
باريـــس

الطبعة 2000 م

استهـــلال

مع هذا الكتاب ، يطمح الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي ، المتعدّد التجارب والكتابات دينياً وفلسفيّاً وسياسيّاً ، إلى إبراز منعطف خطير في التكوين الفكري والايديولوجي للعالم المعاصر . هذا المنعطف يمكن وصفه بأسطورة الأصول ، المتحوّلة بدورها إلى عقيدة متزمّتة ، وبالتالي إلى عقدة أصوليّة ، قوامها في كل ألوانها ، الاعتقاد بتفوّق أصل على أصل ، ونوع مذهبي على نوع ، ولون قوّةٍ على لون آخر . مرّة أخرى ، يعاصر الانسانَ عقدة أصله ، ويواجه مأساة تطوّره غير الخلاّق وغير الحضاري دائماً . إنها مأساة توهّم وإيهام ، منطلقها الظنّ أنّ الإنسانَ في هذا الجلباب العلمي ، أو ذاك القناع التقني ، أو تلك الصورة الفكريّة/ الدينية أو السياسيّة/ هو أصل كل شيء ، وهو بذلك مختلف ، مميّز ، فوق الأشياء ، يتلاعب بها ، فيحوّل مأساته الوجودية إلى ملهاة أطفال ، ويصحّ عندئذ ما ذهب إليه أفلاطون في قوله « معتقدات هؤلاء ملهاة أطفال ! » .

فمن هم هؤلاء الذين يستدرجهم غارودي ، في مبحثه هذا ، الفلسفي الانتقادي الجارح ، إلى ساحة محاكمة فكريّة صارمة ؟

إنهم في المقام الأول المسؤولون الأصليّون عن المأساة الملهاتيّة التي آلت إليها الانسانية في نهاية القرن العشرين . وبالتالي لا بد من غوصٍ وراء جذورهم التاريخيّة ، ليس فقط للنظر في ولادة مأساتهم المنعكسة فينا وحولنا ، بل أيضاً وأيضاً للنظر في ولادة تاريخنا المأساوي الذي يُبعدنا عن واحة السلام العالمي ، بقدر ما يُجبرنا على الوقوع في دوّامات الحروب اللامتناهية : الحروب الدينيّة ، الحروب القوميّة ، الحروب الاستعمارية ، الحروب الاقتصادية الخ .

يرى غارودي في بحثه هذا، المطروح في آفاق إنسانية العام 2000 وما بعده، أنَّ مذهب التفوّق العلمي أو العلمويّة المبثيّة غرباً على فلسفة أوغوست كونت الوضعية هو الذي دفع الغرب، رغم ثوراته الصناعية والسياسية ومطامحه الديمقراطية، وربما بسببها كلّها إلى تعيين نفسه مسؤولاً عن استعمار العالم بأسره، سواء بحجّة تمدينه واكتشافه واستثمار موارده، أم بحجة التعرُّف إليه. وفي كل حال، بات الغرب العلموي، المنتج لأصوليّاتٍ بعضها ديني معاصر كالأصوليّة الفاتيكانية وبعضها سياسي ملتوٍ كالرأسمالية المتوحّشة التي تقتل سنوياً 50 مليوناً في العوالم الثالثة جوعاً، أي أنها تقصف شعوب الجنوب العالمي بقنبلة نووية يومياً، هي قنبلة التجويع؛ وكالنازيّة/ الفاشيّة التي أدخلت أوروبا، ومعها العالم أجمع في حروب ذهب ضحيتها أكثر من 50 مليوناً، وأخيراً لا آخراً، هذه الستالينيّة التي جرّدت الفكر الاشتراكي العلمي من كل جدليّة وحوار وتحرُّر حقيقي، مما جعل الامبراطورية الستالينيّة تنهار، سلمياً، من داخلها، بحكم أصوليتها وعقدتها المرَضيَّة! بات الغربُ هذا عاجزاً عن الاعتراف بآخرين سواه، وفي الوقت نفسه لم يعد قادراً على محاورة نفسه، فكيف سيحاور سواه الذي لا يعرف ولا يرغب في التعرّف إليه إلاّ بقهره وظلمه ومحاربته؟

في الغرب نجد أمّ الأصوليّات كلها، ومنها الأصوليّة الصهيونيّة. أما الأصوليّات المنعكسة في مرآة العوالم الثالثة، لا سيما المرآة الاسلاميّة (باكستان، أفغانستان، إيران.. الخ) والمرآة العربية الإسلامية (الخليج، مصر، لبنان، تونس، الجزائر.. الخ)، فهي، برأي غارودي معلولات لعلل، لأن الإسلام الحنيف، القرآني والسنّي القويم، براء مما يُلصق به من توظيف سياسي، غالباً ما يُحوَّل إلى ذرائع وحجج تستخدمها الأصوليّات الغربيّة في غزوها لثروات العالم الثالث ونهبها لشعوبها ومنعها من التحرّر والتقدم إلى رؤية علميّة واقعية لمشاكلها الحقيقية.

هذا الكتاب يقرع ناقوس الخطر، انطلاقاً من فرنسا، حيث حركة لوبين تستفيد من أصوليّات الغرب والشرق معاً، فتسعى إلى طرد المهاجرين، أي طرد العالم الثالث من أوروبا، بدلاً من السعي لحل مشاكل المجتمع نفسها؛ ومروراً

بالولايات المتحدة الأميركية ، حيث يزداد الاتجاه إلى فرض ايديولوجيا التوحّش الرأسمالي بقوة التفوّق التقني العسكري ، كما حدث في الڤيتنام وعدد من جمهوريات أميركا اللاتينية ، ومؤخراً في الخليج !

وفي الوقت نفسه ، يحذّر غارودي شعوب العالم الثالث ، لاسيما الشعوب العربية والإسلامية ، من مخاطر البحث عن هويّتها القومية والانسانية المتحرّرة ، في أصوليّات تتنافى مع جذورها التاريخية ، ومع واقعها التحرري وحاجاتها الحقيقية . ويضرب مثلاً على ذلك الأصوليّة الجزائرية التي تندرج سياسياً في مشروع الأصولية الغربيّة التي ترفض الاعتراف بعروبة الجزائر .

أخيراً ، يدعو هذا الكتاب إلى حلّ مشاكل العالم المعاصر بالحوار الذي يقوم على مبدأ الاعتراف بأن لدى الآخر ما نتعلّمه منه ، وأن لدينا ما نعلّمه للآخر ، فبدون المبدأ هذا ، يبطل الحوار وتستمر الحروب ، ومرة أخرى ، ينبّهنا غارودي بعد سلسلة كتبه الطويلة والمتنوعة ، إلى أن هناك مقاربات أخرى لمعالجة شؤون البشر ، غير التعصّب والتنطّع والقتل ؛ إنها مقاربات الفكر الإنساني الحرّ ، التي استلّها الإسلام النبويّ والقرآني منذ 15 قرناً ، وما زال قادراً على تقديمها لإنسانية تصنع هويّتها ، بلا أقنعة .

خ.أ.خ

مدخل

ما الأصولية؟

إن الأصوليّات ، كل الأصوليّات ، أكانت تقنوقراطيّة أم ستالينيّة ، مسيحية ، يهوديّة أم إسلاميّة ، تشكّل اليوم الخطر الأكبر على المستقبل . فانتصاراتها ، في عصرٍ لم يعد لنا فيه الخيار إلّا بين « الدّمار المتبادل والمضمون » والحوار ، يمكنها أن تحبس كل المجتمعات البشرية في مذاهب متعصبّة منغلقة على نفسها وبالتالي متجهة نحو المصادمة .

إن هذا الكتاب سيجعل أسنانَ الأصوليّين من كل اتجاه ، تصطك ، لأنّ أحداً لا يقبل أن يُسمّى بهذا الإسم .

مع ذلك ، تعريف الأصولية واضح : فهي تقوم على معتقد ديني أو سياسي مع الشكل الثقافي أو المؤسسيّ الذي تمكّنت من ارتدائه في عصر سابق من تاريخها . وهكذا تعتقد أنّها تمتلكُ حقيقة مطلقة وأنّها تفرضها .

هناك أصوليّو العلمويّة والتقنوقراطية الذين يزعمون أن عندهم جواباً لكل شيء باسم تصور قديم ، وضعيّ ، للعلم ، والذين يؤمنون بهيمنة الغرب الخالدة . فهناك الأصوليّة الستالينية ، والأصوليّة الرومية (نسبة إلى روما) ، والأصوليّة الإيرانية ، والأصولية الجزائرية ، والأصولية الإسرائيلية ، وأصولية « الإخوان المسلمين » ، والأصوليّة السعوديّة ، أو أصوليّة لوبين Le Pen . إن كل ألوان الأصوليّة محلّلة في مصدرها وخصوصيّتها . مع أولويّة : إن العربية السعودية هي المركز السطحي للزلزال الأصوليّ في العالم الإسلامي .

أما دحضُ الأصوليّة الإسلامويّة فلا يجري إنطلاقاً من غرب تلوح تباشير

انحطاطه ، بل من الداخل : انطلاقاً من الرسالة القرآنيّة التي تبيّن أنّ الإسلامويّة هي مرض الإسلام .

بادىء الأمر سنعبّر عما لا يجوز فعله : لا تنازلات ، لا تضليلات ، لا قمع ؛ بل معالجة جذرية ، أي تبديل جذري لعلاقاتنا مع العالم الثالث ، ومع العمّال المهاجرين الذين هم العالمُ الثالث بيننا .

إن الأصوليّة هي الخطر الأكبر على عصرنا ، حيث لا يمكنُ حل أية مشكلة انطلاقاً من مجتمع جزئي واستناداً إلى معتقداته الجامدة .

فالحوارُ هو نقيض الأصوليّة . لكنْ ليس هناك حوار بين السيّد والعبد . إن الحوار تضليل إنْ لم تُحلّ المشاكل الأساسية التي يولّد تناسيها الأصوليّة : العلاقات مع العالم الثالث ، وكل ما ينجم عنه من البطالة إلى الهجرة ، إلى الإعتراف بثقافة الآخرين ومعتقدهم .

إن الأصولية تثير مسألة تضرب جذورها في الاقتصاد والسياسة . لكنّها في الوقت ذاته قرحة روحيّة آكلة ، تتهدّد الحضارة بكاملها .

للخلاص من الأصوليّة ، لا يحتاج العالم إلى قيصر أو نابوليون ، بل يحتاج إلى نهوض ملايين الرجال والنساء تلبيةً لنداء لوثريّين جدد ، غانديّين جدد .

إن هذا الكتاب سيصدم جميع القرّاء المعتادين ، بحكم التوضيب الإعلامي ، على الخلط بين الأصوليّة والإسلامويّة .

الواقع أنّ الأصوليّة ولدت ، في العالم الثالث وبكل أشكالها ، من زعم الغرب ، منذ النهضة ، فرضَ نموذجه الإنمائي والثقافي .

من هنا يصدرُ مخطط الكتاب : الأصوليّة الغربيّة هي العلّة الأولى ، ثم ولدت كل الأصوليّات الأخرى رداً على أصوليّة الغرب .

لم تظهر كلمة « أصوليّة » في اللغة والمعاجم إلاّ حديثاً جداً . فهي لم تمثل ، سنة 1966 ، في معجم روبير الكبير ، ولم تظهر سنة 1968 في الموسوعة العالمية En-cyclopædia Universalis ، ويعرّفها قاموس لاروس الصغير ، سنة 1966 ، بكيفيّة عامة جداً : « موقف أولئك الذين يرفضون تكييفَ عقيدة ، مع الظروف الجديدة » .

أمّا لاروس الجيب فيطبّقها سنة 1979 على الكاثوليكيّة وحدها : « استعداد فكري لدى بعض الكاثوليكيّين الذين يكرهون التكيّف مع ظروف الحياة الحديثة » . سنة 1984 ظهر لاروس الكبير (في 12 جزءاً) أكثر شمولاً : « داخل حركة دينية ، [الأصوليّة] موقف جمود وتصلّب معارض لكل نمو أو لكل تطوّر » . وكل الأمثلة التي يضربها تستهدف الكاثوليكيّة : « الأصوليّة الكاثوليكيّة ، التي كانت بوجه خاص كفاحيّةً في ظل بيوس العاشر (1903 -1914) في زمن الحداثة ، شهدت تفجّراً جديداً بعد مؤتمر الڤاتيكان الثاني » . ثم يضيف جاعلاً الكلمة تتعدّى نطاق المجال الديني : « مذهب محافظ متصلّب في موضوع المعتقد السياسي » . ولا يذهب أبعدَ من ذلك لاروس 1987 ، وهو القاموس الفرنسي المستعمل في الكوليج : « موقف بعض الكاثوليكيّين الذين يرفضون كل تطور ، عندما يعلنون انتسابهم إلى التراث » ، كما يرى جان ديبوا .

من هذه التعريفات تُستخلَصُ المكوّناتُ الأساسيّة للأصوليّة : أولاً ، الجمودية ؛ « رفض التكيُّف » ، « جمود معارض لكل نمو ، لكل تطور » ؛ ثانياً ، العودة إلى الماضي ، (« الإنتساب إلى التراث » ، « المحافظة ») وثالثاً ، عدم التسامح ، الانغلاق ، التحجر المذهبي : « تصلّب » ، « كفاح » ، « عناد » .

حرْفيّاً ، يمكن للأصوليّة على هذا النحو أنْ تضع نفسها كجموديّة في مواجهة التطوّر ؛ كتراثٍ في مواجهة الحداثة ؛ كتحجّر مذهبي في مواجهة الحياد . بكلمة ، يمكن للأصوليّة أن تكون نقيض العلمانيّة .

والحال يغدو مفهوماً التشديدُ ، في المعاجم الفرنسية ، على الأصولية الكاثوليكية ، المرتبطة في بلادنا ، بالصراعات بين الكنيسة والدولة . فحين يؤسس كلٌّ منهما مستلزمات المؤسسة (الكنيسة ، الدولة) على تصوّر العالم ، للسياسة ، تغدو المجابهة ايديولوجيّة .

إن المذاهبَ تتغذّى من بعضها ، فينجم عن ذلك إنحرافٌ في المفاهيم ذاتها : فالدفاع عن امتيازات الكنيسة ارتدى طابع الدفاع عن العقيدة ؛ والدفاع عن العلمنة في الدولة وفي المدرسة تحوّل إلى استبعاد وضعيّ للعقيدة ، وتجذّر في الإلحاد بكل طيبة خاطر .

هكذا تحوّلت العلاقة التنازعيّة بين مؤسستين إلى استبعاد متبادل لبُعدين من أبعاد الإنسان : تعالي الله أو كفاية الإنسان . المسيح أو بروميثيوس .

أما مقاومة العلمنة المقدّسة لتطاولاتِ الكنيسة فقد تحوّلت إلى مذهبية موازية للمذهبية الدينية (الاكليركيّة) : الاستبعاد ، في المدارس ، وكل ما كان يمكنه إثارة مسائل تتخطّى آفاق الوضعيّة . مثال ذلك إلغاء كل نص في البرامج يدعى « مقدّساً » سواء كان المقصودُ البهاغاڤاد ـ جيتا أم القرآن ، الأنبياء العبرانيين أم الأناجيل . فكلمة « علماني » تدلُّ حصْراً على ذلك الذي لا ينتسب إلى الاكليروس ولا يتضمّن أيَّ إلحاد .

وبحجّة الحياد ، صارت اللاأدريّة دينَ دولة . يعطي معجم روبير الكبير هذا التعريف : « محايد : مأخوذ من اللاتينية neuter : « لا هذا ولا ذاك » ، « الذي ليس جيداً ولا سيئاً ، لا خيراً ولا شراً لا جميلاً ولا قبيحاً » . إنه في الحقيقة مثال عجيب يذكّر بخصي أبعاد الإنسان الإنسانيّة حقاً ! ويضيف المعجم بعد ذلك هذا القول البليغ : « في علم الحيوان ، يقال عن بعض الأجناس [. . . .] ، أفراد لاجنسيّون » .

الباب الأول

الأصوليّات الغربيّة

I

الأصوليّة العلمويّة

لا يزال التعليم ، في فرنسا ، يحمل طابع « فلسفة أنوار » القرن الثامن عشر التي آلت ، في صراعها الصحيح ضد المزاعم الثيوقراطيّة ـ سنقول اليوم المزاعم « التوتاليتاريّة » ـ لكنيسةٍ صارت مَعْلماً من معالم الدولة وأداةً من أدوات هيمنتها ، إلى شكوكيَّة ساخرة مع ڤولتير ، وآلت إلى نفي عقائدي متشائم مع دولباخ d'Holbach ، لتصل في عزّ الثورة إلى مشاريع اقتتال ثأري .

بعد إكليروسيَّة نابوليون الملحدة ـ « يا ولاتي ، يا رجال أمني ، يا مطارنتي » ـ وردة فعل الإصلاح السوداء ، وبعد هاجس تثبيت مكاسب الثورة من خلال استبعاد متزامن لروحية « الأنوار » الانتقاديَّة التي كانت قد تسبّبت في إنهاء عالم ، ولظلاميّة إكليروسيَّة لم تكن قد توقّفت عن كونها سلاحاً ضد الحركة ، ضد « التقدم » كما يرى كوندورسيه ، ظهر منظِّرون مثل سان ـ سيمون ، مهتّمون بإعطاء أساس ايديولوجي لسلطة الصناعيّين والمهندسين ، جاعلين من التقدّم والعقل التقني ديانةً جديدة . يعلن سان ـ سيمون بكل وضوح : « كنتُ مؤيداً للصناعيّين » ، مؤيداً لهم للكفاح في آن ضد العودة إلى النظام القديم وضد كل إعادة نظر في سلطة الصناعيين من جانب ثوريين جدد .

وهو بالتالي يبتدع ديانة جديدة حين يجعل من العلم معتقداً متحجّراً (دوغما) : « إن الآراء العلميّة التي تقرّرها المدرسة سيتعيّن أنْ ترتدي لاحقاً الأشكالَ التي تجعلها مقدّسة ، وكتب أن هدف كتابه الأخير : **المسيحية الجديدة** « هو إكمال الحقبة الثوريَّة التي بدأت في القرن السادس عشر » . ونجد أن الشّاغل

نفسه يشغل مؤلفات أوغوست كونت بكاملها ويهيمن على تصوّره للعلم والسياسة .

شعاره : « النظام والتقدّم » . « التقدّم » غايته جعل النظام الصناعي الجديد يسري بحرية في مواجهة النظام القديم ، و « النظام » غايته الوقاية من تشكيكاتٍ جديدة .

إن مبدأ النظام الجديد هو « العلم » المحدَّد بوصفه جملة وقائع مشهودة ، مجموعة علاقات بين هذه الوقائع القابلة للمشاهدة والقياس . ويتعيّن على العلم أنْ يتوقّف عند هذا الحدّ ؛ وأن يستبعد كل رجوع إلى بحث الاسباب والغايات الذي يميز عصر البشريّة اللاهوتي ، والذي يمتدّ من الأصول حتى القرن الثالث عشر . ويمتدّ العصر الغيبي (الميتافيزيقي) من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر ، وهو مرحلة عصيبة من مراحل البشريّة يسمّيها « الثورة الغربيّة » وتبلغ ذروتها مع الثّورة الفرنسيّة . ويبدأ مع أوغوست كونت العصرُ الوضعيّ ، عصر « علم » الوقائع والقوانين والمقاييس ، المطبَّق على الطبيعة والبشر معاً ، والمستوعب للسياسة في « علم اجتماعيّ » . إنّه يشكل نهاية التاريخ المختوم بدين أخير ، مُبين . إن فلسفة التاريخ هذه ، التي يسودها « قانونُ الحالات الثلاث » ، تقدّم درجة اليقين والحقيقة المطلقة ذاتها التي يقدّمها قانونُ الجاذبيّة . وهي بالتالي أساسُ الديانة الوضعيّة ، « دين البشريّة » الجديد والأخير .

سنة 1848 ، أنشأ أوغوست كونت « الجمعيّة الحرّة لتعليم الشعب تعليماً وضعياً ـ في معنى المذهب الوضعي ـ في كل الغرب الأوروبي » . ولتركيز هذه الجمعيّة على قوى حقيقيّة ، يوجّه « نداءً إلى المحافظين » ويتوجّه هو شخصيّاً إلى قيصر روسيا وإلى الصدر الأعظم في الامبراطورية العثمانيّة .

وإذا كان القيصرُ والصّدرُ لا يبدوان مقتنعين بضرورة هذه الديانة الكليّة (التوتاليتارية) العلمويّة لتدعيم سلطانهما على نحو أفضل ، فإن وضعيّة أوغوست كونت لم تنقطع ، منذ قرن ونصف القرن تقريباً ، عن كونها المصادرة الضمنيّة للتعليم الجمهوري .

كانت الوضعية تسمح في آنٍ برفض كل عودة هجوميّة لمزاعم الكنيسة وذلك

من خلال حصرها في نطاق الأجيال الغابرة من العصر الوسيط اللاهوتي المُظلِم ، وبتوفير الضمانة للغرب بأنّه العِرْق الأرفع ، ليس باختيار إلهي ـ كما كانت تزعم الكنائسُ القديمة عندما كانت تسمّي المشاريع الاستعمارية الأولى في أميركا وأفريقيا أو في آسيا ، « تنصيراً » للوثنيّين ـ ، بل بأولويّة عقلانيّة ، علميّة وتقنيّة ، أولوية الدخول في العصر « الوضعي » .

لم يكن الاستعمار يُبرَّر ويُسوَّغ بمساهمة الأناجيل ، بل بمساهمة الحضارة العلميّة والعلمانيّة ونقلها إلى الشعوب « البدائية » الراسبة في المرحلة « اللاهوتيّة » . فليس من قبيل المصادفة البتّة ، بل على العكس ومن باب الانسجام الفكري أن يكون أعظم حامل لهذه الايديولوجيا ، ومؤسس المدرسة العلمانيّة ، جول فرّي Jules Ferry ، هو في الوقت نفسه المحرّض على الغزو الاستعماريّ في مدغشقر ، في تونس والڤيتنام حيث عادت عليه حملات الغزو ومرارتها بلقب « التونكيني »[1] .

الذريعة الاقتصادية : « إنّ المستعمرات هي بالنسبة إلى البلدان الغنية سوق مميّزة لتوظيف الرساميل ؛ ولقد قدّم ستيوارت ميل الشهير البرهان على ذلك » . ويضيف جول فرّي : « إنّ تأسيس مستعمرة يعني إنشاء سوق » .

هذا المفكّر الواضح كان في فرنسا المُنظِّرَ الأعنفَ للاستعمار ، مثلما كان في انكلترا ستيوارت ميل ، وهو تلميذ آخر من تلامذة وضعيّة أوغوست كونت . ففي خطابه يوم 28 تموز/ يوليو 1885 أمام مجلس النوّاب ، أعلن : « أجل ، نحن نتبنّى سياسة توسّع استعماري قائمة على نظام . وهذه السياسة الاستعمارية تقوم على ثلاث قواعد : اقتصادية ، إنسانيّة وسياسية . . . » (**الجريدة الرسمية** ، ص 1062) .

الذريعة السياسيّة : حيازة قواعد في العالم قاطبةً : « لهذا كانت تلزمنا تونس ، ولهذا كنا بحاجة إلى سايغون وساحل الڤيتنام الجنوبي ، ولذا تلزمنا مدغشقر اليوم ، ونحن موجودون في دييغو ـ سواريز ولن نغادرها أبداً » (**الجريدة الرسميّة** ، ص 1068) .

الذريعة الإنسانيّة : إننا ننقل الحضارة . أدى هذا التبرير الايديولوجي

---

(1) نسبة إلى إقليم تونكان في الڤيتنام . المعرب .

للاستعمار إلى اعتراف جول فرّي الحقود ، ذلك اليوم ، في المجلس ، الذي نرى من المُستحسن التذكير بـه مع بعض التفاصيل (الجريدة الرسمية ، ص 1065 و 1066) .

ـ جول فرّي : « يقول السيّد بلّتان : « ما هـذه الحضارة التي تُفْرَضُ بقوّة المدفع ؟ . . . » إليكم ، يا سادتي ، الأطروحة ؛ لا أتردّد في القول إنّ هذا ليس من السياسة ولا هو من التاريخ ؛ إنّه من الميتافيزيقيا السياسيّة . أيها السادة ، لا بد من الكلام بصوتٍ أرفع وبحقيقةٍ أكثر . يجب القول بصراحة إنّ للأعراق العليا حقاً ، عملياً ، على الأعراق السُّفلى . . . » .

هيجان فوق عدّة مقاعد في أقصى اليسار .

ـ السيد جول ماني (Maigne) : « تتجاسر على قول هذا الكلام في البلد الذي أُعلنت فيه حقوقُ الإنسان ! » .

ـ السيد ده غويّوته : « هذا تسويغ للرّق ولتجارة العبيد ! » .

ـ جول فرّي : « لئن كان السيد ماني المُبجَّل على حق ، وكان إعلانُ حقوق الإنسان قد كُتب لأجل السُّود في أفريقيا الاستوائيّة ، عندئذٍ بأيّ حق ستفرضون عليهم المبادلات والتجارة ؟ إنهم لا يدعونكم » .

هنا يحدّد جول فرّي مصادرة الإستعمار بأسره : تفوّق الغرب على الشعوب « المتأخرة » التي لا يمكن أن تُذكر « حقوق الإنسان » في مواجهتها .

إن هذه الأصوليّة الغربيّة اللاواعية والمميتة التي تُستخدم ، منذ 5 قرون ، كمبرّر إيديولوجي لكل تجاوزات الاستعمار ، إنما تلعب مرّة أخرى دورها اللعين في آخر المغامرات الاستعمارية في التاريخ : مغامرة الأميركيّين في الخليج .

فهذه المغامرة تُصوَّرُ كأنها دفاع عن شعب ذي سيادة وضحية غزو ؛ دفاع باسم احترام مقدس للقانون الدوليّ ، غير أنّ مقارنةً بسيطة تُظهر للعيان نفاقَ هذا « الدفاع عن القانون الدوليّ » وقرارات هيئة الأمم المتحدة حسبما يكون الانتهاك من صنيع قوّة عظمى أو من صنيع ربيباتها ، أو حسبما يكون من صنيع بلد من بلدان العالم الثالث ، فعندئذٍ تكون ردّة الفعل معكوسة تماماً :